

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الدرس : 3 - سورة الأحقاف - تفسير الآيات 29 - 32

11-02-1996

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، الآية التاسعة والعشرون والتي بعدها من سورة الأحقاف، والتي تبدأ بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32)﴾

[سورة الأحقاف]

أيها الإخوة، عندنا عذاب أليم، وهذا العذاب قد لا يحتمل الإنسان وبمجرد أن يجيب داعي الله أي أن يستجيب له، فربتنا عز وجل يقول:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

[سورة الأحقاف]

ماذا تفيد من هذه ؟ لماذا لم يقل ربنا عز وجل يغفر لكم ذنوبكم ؟ علماء التفسير قالوا: هذه من تفيد التبويض، يعني يغفر لكم بعض ذنوبكم التي بينكم وبينه، أما التي بينكم وبين العباد فلا تُغفر إلا بالأداء أو المُسامحة، فإما أن تؤدّي الحق وإما أن يُسامحك، لذلك الذي يتوهم أنه إذا ذهب إلى الحج غفرت له كلّ ذنوبه، فهذا وهم خاطئ، فالذنوب لا يُغفر منها إلا التي بينك وبين الله، أما التي بينه وبين العباد فلا بدّ أن يؤدّيها، حتّى لا يقع الإنسان في وهم.

قال تعالى:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

[سورة الأحقاف]

والحقيقة أن أكمل شيء في الإنسان أن يستجيب للدعوة البيانية، وهو صحيح معافى قوي، وغني عن الناس، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً، هكذا دعا لنا النبي عليه الصلاة والسلام، ثم إن هناك حقيقة ثانية، وهو أن الذي يحب رسول الله لا بد من أن ينفق ماله على حبه، لأن أحداً سأله فقال: يا رسول الله، إن أحبك فقال: أنظر ماذا تقول؟ هذا الفقر اسمه فقر الإنفاق ويقابله كما قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(34)﴾

[سورة التوبة]

فالمؤمن الذي أحب الله ورسوله تجده ينفق، فإذا افتقر فهذا فقر الإنفاق وعندنا فقر الكسل؛ هذا مذموم والإنسان محاسب عليه، ويوجد فقر القدر؛ الإنسان معذور؛ إذ أنه قضاء الله وقدره، فالإنسان العاجز، والإنسان كفيف البصر، والمصاب بشلل طفل عنده كساح هذا فقير إنه لا يستطيع أن يكسب قوت يومه فهذا فقير فقر القدر، أما إنسان كسول مهمل، لا يتقن عمله، ولا يداوم، وينام إلى الظهر، وإذا عمل عملاً لا يتقنه، يسوف، يماطل، يهمل، فهذا إذا افتقر فققره عقاب، اسمه فقر الكسل، ونحن عندنا فقر القدر، وفقر الكسل، والفقر الثالث هو فقر الإنفاق؛ فالصحابية الكرام كانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله، والنقطة الدقيقة أنه يستحيل عليك أن تحب الله، وتحب رسوله وأن تكبّر الذهب والفضة، ولأن الله عز وجل يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(35)﴾

[سورة المائدة]

فإذا الإنسان أحب فتاة، وخطبها وعقد عليها، فلا يأتيها إلا ومعه هدية وهذا شيء معقول، فالمؤمن إذا أحب الله عز وجل يُقدّم له هدية، أن ينفق من ماله على عباد الله تعالى، مرة دُعيت إلى طعام لأيتام، فالطعام نفيس جداً، وليس من صنع المطاعم، ولكن من صنع البيوت، علمت أن هناك أسر تتنافس وتأخذ دور كي تصنع طعام للأيتام في رمضان، وهذا شيء جميل جداً، فالإنسان حينما يحب الله يبحث عما يرضيه، عن عمل يرضيه، عن إنسان يكرمه، لذلك المؤمن ينفق ماله، وإذا افتقر المؤمن فهذا ليس فقر قدر ولا فقر كسل إنما فقر إنفاق، قال: انظر ما تقول قال: والله إني أحبك، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول لفقر أقرب إليك من شرك نعليك، لذا أجمل شيء أن تستجيب لله وأنت صحيح معافى، وأنت قوي شاب وغني، لكن الإنسان قد لا يستجيب فيأتي التآديب، فهو إن استجاب مع التآديب فهذا شيء جيد، لكن الأجود منه أن يستجيب إذا دُعِيَ إلى الله عز وجل، وأحياناً يُعطي الله تعالى هذا العبد التائه الشارد الدنيا،

فنقول: الأولى أن يشكر فإذا لم يستجب، ولم يشكر، ولم يتب، فهذا موته خير من حياته، وهذا يأتي القصم فينتهي، قال تعالى:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

[سورة الأحقاف]

أي لا تستطيعوا أن تجيبوا داعي الله إلا إذا آمنتم به، لأنك إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الأمر تفننت في معصية الأمر، وفي حيل تتهرّب بها من طاعته أما إذا عرفت الأمر، ثم عرفت الأمر تتفانى في طاعته. الجواب، قوله تعالى:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾

[سورة الأحقاف]

في الدنيا مغفرة وفي الآخرة نجاة من عذاب أليم، قال تعالى:

﴿ فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185) ﴾

[سورة آل عمران]

ثم قال تعالى:

﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32) ﴾

[سورة الأحقاف]

قال له عليه الصلاة والسلام: قل آمنت بالله ثم استقم...، فقله ليس بمُعْجِزٍ أي لا يستطيع أن يتفانت من ملك الموت، وتزوى قصة رمزية وهي أن سليمان الحكيم كان عنده إنسان، وكان عنده ملك الموت، فصار ملك الموت يُحدِّق في هذا الإنسان فسأل هذا الإنسان سليمان؛ من هذا الذي يُحدِّق في؟ فقال: ملك الموت فأنخلع، وطلب منه أن يُرسله إلى أقصى الدنيا على بساط الريح! فنقل إلى الهند، بعد يومين مات هناك، فسليمان الحكيم سأل ملك الموت: لماذا كنت تُحدِّق في البصر؟ فقال له: عجبتُ له أنا كان معي أمر قبض روجه بالهند فما الذي جاء به هناك؟! فكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا نو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر. قالوا: أنه بقديم الزمان كان هناك ملك جبار وبطاش، غضب على أحد رعاياه، وكان يعمل نجارًا، فطالبه بمائة كيس نجارة، فأدرك النجار أنه قائله، لأن الطلب مستحيل، فودع أهله، وكتب وصيته، ومع الفجر طرقت الباب، فقبل أهله وذهب ليقتل، فإذا الخبر أن الملك هو الذي مات! قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾

[سورة الأحقاف]

فَسُبْحَانَ مَنْ قَهَرَ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ ! فلا بدّ من الموت، فهذا معنى.

المعنى الثاني، لا يستطيع المؤمن لإنسان مهما كان قوياً أن يتغلّت من عقاب الله، كنت عند طبيب، وجاءه اتصال هاتف من طبيب، فالذي سمعته، وكنت قريباً من الهاتف، قال له: أيّ مكان بالعالم، وأيّ مبلغ نحن جاهزون له ! فقال له الطبيب: والله لا يوجد أمل ! فالسرطان في الدرجة الخامسة، فالمرض يأتي أحياناً في أوج نشاط الإنسان.

أيها الإخوة، كلمة قاسي هي كلمة توصف بها المواد التي تُقاوم قوى الضَّغَط، فأقصى عنصر في الأرض هو الألماس، وعندنا قوى الشدّ فالله تعالى:

﴿وَأْمُلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ (183)﴾

[سورة الأعراف]

فما معنى متين ؟ أمتن شيء الجبال الفولاذية فالتيليفريك يُحمل بها، أما أقصى شيء هي الألماس، فالإنسان مهما كان قوياً، ومهما كان جبّاراً، ومهما كان ذكياً، ومهما كان مُتمكِّناً فالحبْل متين لا ينقطع، وبِلحظة واحدة يأتي في قبضة الله، قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾

[سورة الأحقاف]

الإنسان في الدنيا له جماعة، وأنصار وأقرباء وأعوان، وقد يقع الإنسان بورطة فيتصل بفلان وفلان، أما في الآخرة قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)﴾

[سورة الأنعام]